كلمة أخيرة

التقليـــــد فى الفنون

أو نسخ «الكربون»

للأستاذ سيد قطب

التعبير الفنى فى كل صورة من صوره – أدباً كان أم تصويراً أم نحتاً أم غناء أم موسيقى – هو انبعاث ذاتى، وفيض نفسى، وانفعال شخصى، يتميز فيه كل فنان عن كل فنان

والله الذى جعل بصمات الأصابع مختلفة فى كل إنسان عن كل إنسان – وهى خاصة جسمية – جعل الشعور الإنسانى والطبائع البشرية أشد اختلافاً وأكثر تفاوتاً، لأن الملامح النفسية أجدر بالتفاوت والاختلاف من الملامح الجسمية فى بنى الإنسان

وتفاوت الطبائع الفنية هو المبرر لظهور الفنان بعد الفنان، حتى يكون للحياة من هـذه الطبائع معرض حافل بصورها المختلفة، ذلك أن الفن صورة الحياة فى نفس فنان، وحين تختلف الصور وتتعدد، يحفل المعرض الخالد بالصور العجيبة

وحين ينعدم هذا التفاوت والتميز المطلوبان فى الفنان، ينعدم المبرر الأول لظهوره على مسرح الفنون، ويفقد حجته فى تمثيل دوره فى الحياة التى لا تحفل بالنسخ المكرورة المعادة، ولا تبالى سوى الجديد المتميز تكثّر به نتاجها الممتاز، وتزيد فى معرضها العجيب

تلك بديهيات مقررة، ولكننا هنا فى مصر نحتاج أن نبدئ فيها ونعيد وأن نشرحها ونضرب الأمثلة لها، ولو نقلت هذه الشروح والأمثلة إلى أية لغة لكانت عجباً هناك بين القارئين، ودليلاً أى دليل على مبلغ تأخرنا فى فهم وظيفة الفنون، بينما نحن فى مصر لا نزال فى حاجة إلى المزيد!

وقد كان معيباً أن يقلد شاعر شاعراً، وموسيقى موسيقياً، ومطرب مطرباً، فى طريقة إحساسه أو طريقة أدائه، ولو كان هذا التقليد غير مقصود، لأنه يعارض غرض الحياة الأول من إظهار فنان بعد فنان، ويعطل وظيفة الفن الأولى من إبراز النماذج والأنماط

وظل هذا التقليد المستتر العارض معيباً، حتى فوجئنا أخيراً ببدعة فاقت كل ما كان يخطر على البال من جراء المسخ الذى أصاب الغناء المصرى، تلك هى ظهور مطرب أو أكثر يقول علناً: إنه يغنى على طريقة مطرب آخر، ويذيع فعلاً، فإذا هو صورة أخرى من أستاذه أو نسخة من نسخ «الكربون»!

كنا ننتظر كل مسخ أو تشويه للطبيعة البشرية – ودعك من الطبيعة الفنية الممتازة – إلا أن يصل هذا المسخ إلى رضاء إنسان أن يكون نسخة أخرى من إنسان، ونسخة مشوهة بطبيعة الحال كنسخة «الكربون» بالقياس إلى النسخة الأصلية

ولست أدرى ما يبرر وجود النسخة الثانية متى كان فى الإمكان الاطلاع على النسخة الأولى. ولست أدرى لماذا يكلف إنسان نفسه مشقة الاطلاع على نسختين مكرورتين أو أكثر وفى واحدة غناء عن الأخريات؟

وما أدرى أسأل المطرب المقلد أو المطربون المقلدون والمطربات المقلدات أنفسهم هذا السؤال؟ وهل علموا أنهم يلغون وجودهم ويفقدون المبرر الأول لهذا الوجود، أم لم يدر فى أخلادهم مثل هذه الأسئلة وهم يندفعون إلى التقليد؟

***

وبعد فلو عزت الدلائل على المسخ والتشويه الذى بلى به عالم الموسيقى والغناء، ففى هذا التقليد الواضح المكشوف دليل لا ينقض على هذا البلاء، دليل على هؤلاء الذين يتصدون لأرفع وظيفة إنسانية وهم مجردون من المؤهلات البشرية الأولية التى ترتفع بالانسانية عن التماثل أو التشابه الملحوظين بين حجر وحجر أو زاحفة وزاحفة، قبل أن تتميز الأشكال وتتنوع الأنماط فى عالم الطبيعة وعالم الحياة ...

وهو دليل على أننا لم نكن مبالغين حين نفضنا أيدينا من هؤلاء الناس، ويئسنا من استطاعتهم تغيير أنفسهم وتبديل طبائعهم؛ وحين التفتنا إلى هذه الأمة وحدها نفحص عن نبع مطمور فى طبيعتها نرجو أن ينفجر فيكتسح هذه المخلفات

وفى ارتقاب هذه المعجزة نقضى الوقت فى تأملات وملاحظات علها تمهد الطريق للنبع المرموق!

يشقشق العصفور حين تمتلئ حويصلته بالحب والماء، ويحس بالدفء والراحة، ويأمن المخاوف والأخطار، ويستشعر فى قواه فضلة دافقة يناجى بها الأليف، ويطلب لها كفئاً من الأنيس

ويغنى الإنسان — على مثال ما تشقشق الطير — حين يجد فى نفسه فيضاً من شعور، وفضلة من طاقة، ويحس براحة للتعبير، ولذة فى التنفيس. يستوى أن تكون هذه الطاقة من لذة أو ألم وأن يكون ذلك الشعور من نعمة أو بلاء، والألم فى هذه الحالة دليل قوة كاللذة سواء، ومبعثه امتلاء النفس بعاطفة ملحة، لإفراغها من الطاقة الدافعة

ولن يكون الغناء فى أية حالة من الحالات دليل ضعف وانحسار فى الوجدان، ولن ينبعث حين ينطوى المرء على نفسه وتفرغ الطاقة الدافعة فى شعوره، فهذه الحالة حين توجد تبعث على الصمت لا على التعبير، وتنزع إلى الانزواء لا إلى الظهور

فالذين يغنون فينضح الضعف فى أغانيهم، ويسيل التخاذل فى نبراتهم، والتهالك فى ألحانهم، هم جماعة من المثلين الزائفين لا يليق بأمة أن تطمئن إلى قيامهم بأرفع وظائفها وهو التعبير الفنى والقيادة الروحية والتطلع إلى الكمال

والحب المظلوم مع المؤلفين والملحنين والمطربين، هو الآخر دليل فيض فى القوة لا دليل انحسار. فلن يحب الحب وهو مضموف هزيل، ولن يبحث عن الحب إلا حين تفيض قواه، ويطلب لهذا الفيض إنساناً آخر يعاطفه ويكانفه؛ حتى الحيوان — لا يحب! — إلا حين تصح بنيته وتفيض غريزته فيطلب الأنثى، ويجهر بالحب على طريقة الحيوان!

وقد يبعث الحب الألم فى بعض الأحيان، ولكنه لن يبعث الضعف فى حالة من حالاته، ولا التميع فى صورة من صوره؛ إلا أن يكون هـذا الحب «السوق» المصطنع الذى يفيض به الغناء فى هذه الأيام

إن حرقات الحب فى حرمانه غريزة قوية كلذائذه فى متاعه، وما كل هذه التكسرات و«المياعات» إلا دنس يلطخ وجه هذا الحب العزيز الكريم، ويشوه جبينه الطاهر النبيل، وما هو إلا مسخ للطبائع وتحريف للغرائز، أوقح ما فيه أنه يتزيا بزى الفنون

ومن المؤلم ألا يكون الغناء وحده هو الذى يقارف هذه الجريمة، بل يشاركه الشعر فيها؛ فإذا الحب بكاء ودموع ولا شيء غير البكاء والدموع. ولن يصاب الحب بالمسخ فوق هذا المصاب، ولن يبلى هذا البلاء إلا حين تشيخ الأمم ويصيبها الانحلال. ومن هنا نحن نشتد فى مقاومته خيفة أن يصدق نذيره فى شعب يهم بالنهوض!

إن للحب ألواناً وأنماطاً، وإن له صعوداً وهبوطاً، وإقبالاً وإدباراً، ولذة وألماً، وفيه رجاء وقنوط، ويقين وشكوك، وجوح وانحسار، وقلق واطمئنان؛ وهو فى كل حالة من حالاته يثير أحاسيس ويلهم تعبيرات؛ فأين هذا الغنى كله من ذلك الفقر المدقع فى عواطف الشعر والغناء، ومن ذلك الثوب الواحد الذى يرتديانه فى كل حال؟

ووراء الحب عوالم أخرى من مباهج الحياة، ومجالى الأطياف والظلال، ومعارض الصور والأشكال، فى الطبيعة والكون؛ فأين هذا كله فى الموسيقى والغناء؟

***

أيتها الأمة: إن هؤلاء الذين يهتفون لك بأحط غرائزك، ويتملقون فيك أردأ أحاسيسك، ويخاطبون عندك أسوأ وجداناتك، هم جماعة من التجار المهرجين، يختلسون إعجابك وينهبون نقودك، ويجزونك على هذا بنشر أسباب الانحلال، وبث عوامل التفكك. وغريزة الدفاع عن النفس فى أبسط صورها كفيلة أن تنبهك أيتها الأمة إلى الذود عن نفسك، وإلى نبذ كل من يخاطبك بغير ما تخاطب به الأمم الناهضة والشعوب الكريمة وإلى اللقاء — أيتها الأمة — حين تقع المعجزة فينهض فيك فنان فى عالم الموسيقى والغناء.

سيد قطب